أوهام السعادة

1- المدنية

هل المدنية زودتنا بمزيد من السعادة؟ وما كان نتاج العلم والتقنية؟
"روسو دعا إلى انتزاع قناع النفاق واستئصال الحسد والكبرياء والاصطناع ابتغاء الوصول إلى الشفافية والبراءة والطهارة، مما كان في الحال الأولية للإنسانية حيث نعِمَ الإنسان بالبراءة والخير، ولكن المجتمع والحضارة والنظم الاجتماعية هي التي أفسدت طبيعة الإنسان وقد ولدَ خيّراً بالطبع."[57]
مهما كانت التطورات العلمية والتقنية مذهلة إلا أنها لم تساهم في خلاص البشرية من الشقاء، البحث عن السعادة لم يتوقف، ولم تتغير مشاعر الناس بين الماضي والحاضر، الكل يمر بمواقف مفرحة أو محزنة، ولم يزل الإنسان يشعر بأن هناك شيء ما ينغص حياته ويحد من إمكانياته. وربما ازداد هذا الشعور مع زيادة التطور. "وما لاحظه علماء النفس، دون أن يستطيعوا تفسيره من الناحية الوجودية هو أن التألم يزداد مقداره ونوعه تبعاً لازدياد الرقي في سلم الكائنات، حتى أن أدناها في مراتب التطور أقلها تألماً، وأعلاها في مراتب التطور أكثرها شعورًا بالألم، وهذا يفسره النفسانيون على أن ذلك راجع إلى رقي الشعور كلما علا الكائن في سلم التطور، وذلك على أساس أن الرقي في مرقاة التطور، معناه تحقيق الكائن لإمكانيات أكبر، نوعاً ومقداراً، والتحقيق يلقى مقاومة من جانب الغير، وكلما زادت الإمكانيات التي ستُحقق، زاد الألم الناتج تبعاً لزيادة المقاومة، ففي الحيوانات ذوات الخلية الواحدة لا نرى شعوراً بالألم، إنما يبدأ ذلك في ذوات

[57]- الأخلاق النظرية ص 274 .

الأكثر من خلية، ويزداد بازدياد عدد الخلايا، وهكذا حتى يصل إلى الإنسان. والإنسان بدوره يتدرج في هذه الناحية في سلم يبدأ من الإنسان البدائي، مستمراً حتى إنسان الحضارات العليا في أعلى مراحل تطورها... ومن الملاحظ أن الشعوب البدائية قليلة الشعور جداً بالألم، وهذا ما نسميه نحن سرورهم، إذ نراهم محتفظين دائماً بنوع من المرح الهادئ؛ والحال على العكس من هذا بالنسبة للمتحضر فهو سريع التأثر بالألم، مع أنه أقل عرضة للأخطار الخارجية من البدائي الذي هو فريسة هينة لكل عوامل الطبيعة، من ظواهر وحيوانات مفترسة"[58]. هذا مثير للانتباه رغم أن الأخطار التي يواجهها الإنسان البدائي المتعلقة بالعوامل الطبيعية ليست سهلة، ولكنها أقل تأثيراً من الأخطار المرتبطة بحياة المدنية، مهما كانت مخاطر العوامل الطبيعية، أو شراسة الحيوانات المفترسة لن تتسبب بأخطار أكثر من خطورة دمار الأسلحة المتطورة مثلاً. وما نراه في حروب اليوم مرعب!. ولهذا كان روسو مصيباً حين قال أن الحضارة تسلب الإنسان السعادة.

التقنية الحديثة قد ساهمت في تقديم الكثير من وسائل الراحة، ولكنها بالمقابل أصبحت الخطر الأكبر على مصير وسلامة العالم؛ هذا التهديد يبدد لدى الناس كل شعور بالطمأنينة، وهذا التهديد لم يكن موجوداً في الماضي، هذه المخاوف الحديثة هي السبب في القلق والتشاؤم. ربما هذا هو السبب الذي لم يستطع علماء النفس تفسيره، في أن الشعوب البدائية كانت أكثر سعادة من شعوب العالم المتحضر.

روسو يعتبر أن التمدن اللبق أو الراقي ليس فضيلة، بل شكلاً من الدهاء يرمي لتزيين الشر. يقول: " أُقلب الكتب عن الحق والمبادئ الأخلاقية؛ أنصت للأساتذة والفقهاء وعقلي مليء بمذاهبهم الجذابة؛ يروق لي السلام والعدالة التي أرساها النظام المدني... أبارك حكمة مؤسساتنا السياسية؛ أطوي الكتاب وأخرج من قاعة

[58]- الزمان والوجود ص 158-159 .

المحاضرات وأتلفت حولي... ألمح أمماً تعيسة تئن تحت نير من الحديد؛ وألمح البشرية تتعرض للسحق على يد حفنة من المضطهدين؛ ألمح حشدا جائعاً أنهكته المعاناة والمجاعة، في حين يشرب الأغنياء دم ضحاياهم ودموعهم على راحتهم؛ وألمح أصحاب النفوذ من كل طرف مسلحين بالسلطات المرعبة للقانون ضد المستضعفين"[59]

العنف ليس من المواضيع المحببة أو المقبولة عند الجميع، ولكن حسب ما نرى أن الإنسان كلما ازداد تطوراً ازداد توحشاً. ولا يمكن تجاهل هذه الأعمال الوحشية والمجازر، هذا الواقع الكريه يسبب لنا نوبات من القلق والكآبة الخانقة. العالم الآن يغرق في هذه الدوامة المرعبة أكثر من أي وقت مضى. كتب جورج أورويل بعد القصف الذري لهيروشيما وناغازاكي بفترة وجيزة فقال: "تمثل عصر الديمقراطية العظيم وحق تقرير المصير الوطني بعصر البندقية. ثم أردف منوهاً بأن قدوم العصر النووي دفع بالإنسانية إلى نظام أكثر اختلافاً وتعاسةً. يجازف الكائن البشري بتحطيم ذاته بأسلحته الذاتية الغريبة أو بتحطيم الديمقراطية بنوع جديد من العبودية بلغة سلام "حرب باردة" لا يعد هو الآخر سلاماً على الإطلاق".[60]

ومن ناحية أخرى إذا كان التألم مصدره عدم تحقيق الأمنيات؛ فهل أمنيات الناس في الحاضر معظمها قابلة كي تتحقق؟ وهي بمجملها غير واقعية عند معظمهم، ففكرة القناعة أو الزهد والتقشف باتت من الماضي.

وكيف يمكن أن تتحقق أمنيات شعوب مضطهدة مصادرة أراضيها! ومصادرة حريتها وهويتها!

"الشاعر الروسي ألكسندر بوشكين تأثر كثيراً بحياة الغجر، بعدما رأى في حياتهم كل أفعال الحرية، فكتب قصيدةً طويلة تصف أجمل ما في حياتهم، بوصفهم بشراً قادرين على توليد المتعة من طواحين الألم، وبشراً يبنون مدناً من العفوية

---

[59]- العنف والديمقراطية ص 55.

[60]- العنف والديمقراطية ص 19.

والبساطة والتلقائية. من دون حساب أو وجل أو خوف... إنهم أشقاء النبات الذي يمتد ويتطاول كيفما يشاء... على النهر يقيمون بيوتهم في خيام رثة، باحثين عن غطاء من نسائم الليل الباردة في الهواء الطلق، نومهم هادئ كما الحرية، إقامتهم سعيدة... فكل شيء جميل في الطبيعة، ضوء القمر، النهر، الهواء الطلق، وكيف يندفع الشعب الغجري مع شروق الشمس خارج خيامه في صخب، حشد بطيء لكنه مبتهج ومرح وسعيد... حيثما يدركه النوم سينام، وحينما تهفو نفسه للرحيل للسفر سيرحل ويسافر...

بالمقابل يصف حياة المدنية:

بلادي أروقة خانقة حيث لا تحمل نسائم الربيع العطرة أبداً، من المروج والفيافي المزهرة، نسمة تصلها من الهواء البارد الطلق، حيث يُحتقر الحب ككل المشاعر الحقيقية، ويُذبح الفكر وتباع الحرية، حيث يتوسل الرجال راكعين أمام أصنامهم بصورة مخزية من أجل الذهب والقيود... "[61]

روسو أيضاً تحدث عن فكرة ما هو بدائي هو أيضاً خير. وأفلاطون في كتابه "القوانين" وصف الأشخاص البدائيين بكلمات واضحة، وبصورة مماثلة لتلك الكلمات التي ذكرها الطاويون عن الطبيعة على أنها في جمالها وسكونها وطيبة الناس الطبيعيين، فلا يوجد بينهم أغنياء ولا فقراء، والمجتمع الذي لا يوجد به فقر ولا غنى سيظل دائماً متمسكاً بأنبل المبادئ، فلا يوجد به صَلف ولا ظلم، ولا توجد به أية منازعات أو أحقاد. ولذا فهم خيرون، وهم كذلك لأنهم كانوا ما ندعوهم بسطاء العقول، وعندما أحيطوا علماً بالخير والشر كانوا في بساطتهم يؤمنون بأن ما سمعوه هو منتهى الصدق وكانوا يمارسونه".[62]

الأميون يعيشون بغبطة وسلام بفضل حسن التناغم مع بعض الخرافات. فهم لا يملكون الحجج على بعض مبادئ العقل وتبعاً لخبراتهم الماضية عليهم التمسك

---

[61]- مجلة الآداب العالمية العدد 157 .

[62]- الفكر الصيني ص 151.

بالتعليل الذي يقوم على وجود قوة إلهية تعاقب الأشرار وتجزي الأخيار. وعندما يتم التسليم بمبدأ العدالة الإلهية فهذا التسليم يؤدي إلى سلام المجتمع وأمنه ونظامه واعتداله، وبالتالي تكون راحة البشر، ويكون بعدهم عن المخاوف والتوتر؛ ما دام تسليم كل أمور الحياة إلى خالق عظيم لا يترك محبيه يسقطون في هاوية الأحزان. وهذا قد ينتقده دعاة التطور وأنصار مدرسة الشك! ولكن إذا كانت بساطة هؤلاء الشعوب ستجر عليهم السعادة والهدوء والتسامح، فما المشكلة في التمسك بالحياة البدائية البعيدة عن المظاهر والغطرسة والتمرد والسيطرة، وهذه أمور تقلل من حجم وفداحة الصراعات القائمة، والخارجة عن المألوف، فهذه المشاهد الدموية هي الشر والتخلف! وليس حياة البساطة بكل أشكالها. وهذه الحياة مهما كان وصفها أو مساوئها لن تشكل أي خطر على الإنسانية كالخطر القائم في عالم التقنية والتطور، الذي يهدد الأرض بالتدمير، حتى ولو خضعت هذه التقنيات لأكبر قدر من الانضباط والصيانة والمراقبة، وخاصة مع وجود أشخاص لديهم ميول عدائية مرضية، أو بوجود أشخاص يفضلون المال على الفضيلة. وربما ساعد العلم على أشياء كثيرة مهمة وإيجابية ولكنه بالمقابل ساعد على تطوير وسائل الدمار التي باتت تهدد العالم بأسره.

"إن مكتشفي القوانين العلمية غالباً ما يسهمون في تحقيق غايات تقنية، وبات التحكم في البيئة ليس غاية من غايات العلم بل هدف من أهداف التقنية. ومنذ أن توقفت الجامعات ومراكز البحوث عن تشكيل البيئة الطبيعية للعلماء، أصبحوا مُستخدمين يقدمون خدماتهم إلى شركات صناعية وتجارية كبرى. وتحكمت النزوات الرأسمالية بالقطاعات الاقتصادية، والحكومية، وأسهمت في جعل العلم مجرد وسيلة لجني الأرباح وكسب النفوذ، وهكذا غدت قيمة المشروع العلمي ما يحقق من الأرباح، وتُقدر أهميته وفق عائداته المادية. ولهذا من وجهة نظر أخلاقية يمكن التشكيك في موضوعية العلم وحياده في بعض الأحيان.

وأكثر من هذا هناك أشخاص يبدون استعداداً مستمراً لرؤية مصالح الأقوياء وراء كل زعم علمي".[63]

"مع بداية العقد الثامن من القرن العشرين، تقدمت تساؤلات كثيرة إلى الواجهة، تحاول تبيان أثر العناصر الاجتماعية في العلم. فبدل البحث في البنية المنطقية والعقلية لاكتشاف ما، تقدمت مسألة البحث في قيمة الاكتشاف والفئة المستفيدة منه... على هذا النحو لم يعد المضمون المنطقي العقلي يلعب الدور الأساسي في مسألة قبول النظريات ورفضها... فالمفاهيم العلمية والاكتشافات أخذت تظهر كأنها نتيجة للفعل الاجتماعي أكثر من كونها نتيجة للفعل العلمي. وما دامت المعرفة العلمية ليست موضوعية ولا تمتلك بنية منطقية عقلية مستقلة، وتتخللها عوامل اجتماعية وأخلاقية ونفسية، فما الذي يجعلنا نقبل العلم ونسلم بموضوعيته، ونشكك في المعارف الأخرى كالدين والفلسفة والأساطير بحجة أنها غير موضوعية".[64]

هذا لا يعني التقليل من أهمية العلم الذي قدم الكثير، وساهم في خير البشرية، ومن المفروض أن يحقق الراحة والأمان للبشرية، ولكن الكارثة أن هذه العلوم وهذه التقنيات في بعض جوانبها، باتت لخدمة الرأسمالية، أكثر منها لخدمة البشرية.

2- المال

معظم الناس يعتقدون أن السعادة لا تتحقق إلا بالمال. ولكن هل يستطيع المال وحده تحقيق السعادة؟

ما هو الغنى؟ هل هو اكتناز المال؟ أم إدراك المرء لإمكانياته؟

---

[63]- عالم الفكر – رقم 35- ص 376.

[64]- عالم الفكر – رقم 36 – ص 60 – 62.

وهل سأل احدنا إذا كان المال قد أعطاه سعادة إضافية؟ وهل فكر أحدنا كم من الوقت ومن الجهد قد أنفق للحصول على المال؟ وإذا كان هذا المال قد صُرف في مكانه أو ضاع خلف كماليات لا فائدة منها!.

جمع المال يحتاج إلى المعرفة والحكمة والقدرة على الرؤية الصحيحة والأخلاق. فالطمع وعدم النزاهة وضروب الاحتيال كلها تجر نحو الهاوية والتعاسة، وفي أكثر الأحيان المهتمين بتكديس الثروات يتصرفون على نحو تنافسي متجاهلين الكثير من الواجبات الخُلقية.

وما هو الفقر؟ هل الفقر هو قلة المال، أم قلة المعرفة؟

قد يكون الفقر من سوء التدبير، أو من السلطة السيئة، أو نتيجة الظلم. وفي بعض الحالات قد يكون بسبب المرض أو بسبب وجود إعاقة.

أفلاطون يقول: "الثروة والفضيلة لا يجتمعان إذ بينهما ذلك الفارق الذي يجعل كفة إحداهما تنخفض كلما ارتفعت الأخرى، فإذا كرمت الثروة والأثرياء في دولة ما، قل تكريم الفضيلة والفضلاء فيها حتماً".

المال ضرورة ولكن الاستقرار ضرورة أكثر، فهناك طرق تُعتمد لجمع المال لا تحقق الاستقرار ولا الطمأنينة. والتعلق بالقيم المادية لن يمنح الإنسان الفرح بل يضاعف من يأسه ويزيد من انهماكه في العمل لتحقيق المزيد من المكاسب، بدلاً من إدراك نعمة الكفاية والقناعة. "ثمة أناس فقراء عرفوا جميع أنواع المحن التي ما فتئت تنزل بهم، ولكنهم يتحلون بتفاؤل متين. ومن باب الماركسية نؤكد: أن جميع البرجوازيين يتسمون بمواقف الحذر وسوء الظن والتحفظ لأنهم رأسماليون، بينما يتصف البروليتاريون كافة بأنهم كرام، بشوشون"[65]. أرسطو يقول إذا

[65]- المواقف الأخلاقية ص 9.

تجاوزت الثروة حدود الغايات السليمة فإنها تتحول إلى خطر جسيم، فالاعتدال هو الإيجابي.

"علاقة المال بالسعادة علاقة معقدة –تقول بانشال– إذا كنت تحت خط الفقر فإن زيادة الدخل تسعدك ولكن إذا وصل دخل المرء إلى مستوى معين فإن أي مال إضافي لن يزيد من سعادته كثيراً". في بريطانيا والولايات المتحدة واليابان تضاعفت الدخول خلال الخمسين سنة الماضية. نحن نعيش بشكل جيد ولدينا منازل أكثر راحة مليئة بالأجهزة الحديثة، ولدينا كل أدوات الرفاهية، ونسافر إلى الخارج لقضاء عطلاتنا، ونتمتع بصحة أفضل ونعيش أطول، ولكن لا يبدوا أن كل هذه المنافع، التي هي موضع حسد الكثيرين في الدول النامية، قد ساهمت في زيادة سعادة الإنسان حسب ما توصلت إليه دراسات طويلة الأمد. أحد الأسباب هو أننا بدأنا بمقارنة أنفسنا بالآخرين، مما يؤدي إلى الشعور بعدم الرضا والسخط. إذا كان عليك أن تقارن فليكن مع من هم دونك مرتبة. يستطيع دماغ الإنسان التكيف بسهولة مع ظروف جديدة، ويفيد ذلك في معركة البقاء، ولكن في المجتمعات العصرية تحول الأمر إلى "روتين من المتعة" حيث نعتاد على ما في أيدينا ونتطلع للمزيد. على سبيل المثال: لا بد أنك ابتهجت عند شرائك لسيارتك الأولى ولكن وبسبب الإعلانات المقنعة، تُغير سيارتك بأفضل منها، وكذلك دواليك. ولكن لو اضطرتك الظروف للعودة إلى النموذج القديم لن تشعر بالسعادة. وهناك دراسة تبين أن مجموعة من النساء الفيليبينيات اللواتي يعملن في الخدمة المنزلية في هونغ كونغ هن أسعد الناس على الرغم من أنهن بعيدات عن عائلاتهن ويعملن لساعات طويلة في ظروف سيئة مقابل أجر زهيد. ربما يعود السبب إلى أن هناك صلة قوية بين هذه النسوة والهدف الذي يسعين من أجله من أجل كسب النقود وإرسالها إلى عائلاتهن مما يمنحهن شعوراً بالرضا. وتُظهر دراسة صور الدماغ، أن الرهبان البوذيين هم أكثر الناس سعادةً".[66]

[66]- الثقافة العالمية – العدد 151- ص 8.

وأحياناً يسبب المال نتيجة الثراء المفاجئ، أو الإفلاس المفاجئ حالة نفسية مرضية تتسم بالخوف والقلق.

"فوبيا المال هي خوف مرضي مبالغ فيه، سواء كان ذلك في الحصول عليه أو في ادخاره أو إنفاقه. فإذا أنفق المريض ماله يخشى أن يكون قد أنفقه في غير موضعه. وألا يستطيع الحصول عليه ثانية، وإذا احتفظ به وادخره يظل حارساً له خائفاً على ضياعه. وأحياناً ما تحدث فوبيا المال نتيجة الثراء المفاجئ، وعدم قدرة الفرد على التعامل مع أوضاعه المالية الجديدة، والافتقار إلى فن إدارة المال فالثراء المفاجئ ربما يولد نوعا من الشعور بالسعادة لدى الأسوياء، تطول مدته أو تقصر، ولكنه يؤدي إلى شعور عام بالخوف والقلق طويل الأمد. ويرجع هذا القلق إلى خوف المريض من ضياع ماله... من ثم يتضح أن الخوف من المال ليس كراهية له بقدر ما هو حب شديد مبالغ فيه. فبدلا من أن يخدم المال صاحبه، يتحول الفرد إلى خادم أمين للمال".[67]

ولا يمكن أن نُغفل أهمية العمل بالنسبة للمال، فمعظم الناس ينظرون إلى العمل كوسيلة لجمع المال فقط، فالمال في المرتبة الأولى، بغض النظر عن طبيعة العمل، أو النتائج النفسية للعمل، فلا يمكن لإنسان أن يشعر بالرضا والطمأنينة وهو مجبر على القيام بأعمال لا يحبها.

لا شك أن المال يستطيع تحقيق قدرا من السعادة، ولكن ليست السعادة المطلقة، والسعادة المبنية على المال فقط ستكون آنية وهشة وسرعان ما تتلاشى؛ بل على المرء الاهتمام بالمعرفة التي تحصنه أمام أي عثرة قد تواجهه، وعليه التحلي بالقناعة، حتى لا ينجرف خلف الطمع، فيفقد السيطرة على النزوات، ويعجز عن ضبط أهوائه.

[67]- سيكولوجية المال ص 139.

هذه الحكمة من كتاب (لاوتزو) تعبر خير تعبير عن القناعة:
"إذا أردت أن لا تسكب النبيذ، فلا تملئ الكأس أكثر مما ينبغي.
وإذا لم ترد أن يقتحم دارك اللصوص، فلا تملأه بالذهب والأحجار الكريمة.
فالثراء والجاه والغطرسة تضيف إلى الدمار، تماماً كما لو أضفنا اثنين إلى اثنين لكان الناتج أربعًا.
وإذا أديت عملك ووضعت أساس شهرتك، انسحب هذا هو طريق السماء.
من الحكمة أن نتفهم غيرنا
ولكن لكي تفهم نفساً من النفوس يجب أن تكون مستنيراً
ومن يتغلب على غيره فهو قوي
ولكن من يتغلب على نفسه فهو قدير
من يمتلك أعظم الممتلكات
هو الذي ستكون خسارته خسارة فادحة
ولكن من هو قانع فهو لا يصيبه أذى
ومن عنده من الحكمة ما يكفي لحمله على التوافق عن هذا التملك، فهو الثابت.
ما من مصيبة أكبر، من أن لا يعرف المرء، متى يكون عنده ما يكفيه.
وما من نكبة أكثر ضرراً، من الرغبة في امتلاك المزيد.
فلو أن المرء خبر القناعة التامة مرة، فلن يرضى أبداً مرة أخرى من القناعة بديلاً.
فلا نكبة أفظع من العزوف عن القناعة، ولا نازلة أسوأ من الجشع."[68]

وهذا قول لأحد فلاسفة الرومان الكبار يدعى (منكا): "إذا ظهر لك أن ما لديك قليل، فاعلم أنك لو ملكت الدنيا لظهرت أمام عينيك قليلة كذلك".
مقدار المال ليس هو الحل، بل التدبير والحكمة في الإنفاق.

[68]- الفكر الصيني ص 156- 157.

"وفي دراسة أجريت عدة مرات تبين أن الانخفاض في الثقافة الاجتماعية يهيئ الناس للمرور بأحداث حياة سلبية، وخاصةً فيما يتعلق بالعمل والمستوى المادي للمعيشة، وهذا بدوره يؤدي إلى الشقاء أو التعاسة."[69]

هاري إيمرسون في كتابه القدرة على العمل يصور لنا شخصية المسؤول بشكل جميل: "من أين جاءتنا تلك الفكرة التي تقول: إن الحياة الرغدة والخالية من العقبات الصعاب تبعث للحياة بأسعد الرجال. الأمر هو العكس تماماً، فالذين تمرسوا على رثاء أنفسهم سيبقون على هذا الحال حتى لو ناموا على فراش من حرير، والتاريخ خير دليل وشاهد، فقد دلنا بأن العظمة والسعادة تسلمها من ولدوا في بيئات مختلفة منها الجيد ومنها الرديء، لكنهم حين حملوا المسؤولية على أكتافهم لو يتركوها تقع إلى ما وراء ظهورهم".

لا فائدة من لفت الانتباه والتذمر، وإظهار الكفاءة أمام الناس هو إشباع للغرور، والغرور ما كان يوماً من بواعث السعادة، بل هو مرض مرده ضعف الشخصية. والغني هو عرضة للغيرة والحسد وقد يواجه الأعداء ويتعرض للمكائد، فلا داعي للإسراف ولفت الانتباه وإظهار الكفاءة أمام الناس. ليست السعادة في امتلاك القصور والمجوهرات، وليست السعادة في الظهور، فالشهرة هي قيود. لا شك أن المال يخفف من العناء الذي يسببه الحرمان والفقر، ويمكن أن يُعطي شعوراً بالبهجة، ولكنه ليس مقياساً لتحديد مدى سعادة الناس. " النظرة التي هي على درجة كبيرة من السذاجة هي التي تجعل الناس يخطئون تصور المصدر الحقيقي لعدم الاكتفاء، وبذلك يلجئون إلى ابتداع نظريات خاطئة ليفسروا سبب عدم اكتفائهم. ليس الناس بحاجة إلى أدوات مادية أفضل فحسب، بل هم بحاجة أيضاً إلى حرية أكثر وإلى توجيه ذاتي أكثر وإلى انفتاح على الإبداع".[70]

---

[69] سيكولوجية السعادة ص 159.

[70]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي. ص 37.

"ليست الرغبة في المال كوسيلة لتحقيق غايات معينة بموضع للتساؤل، قد يرغب فنان ناهض في المال لكي ينصرف كلياً إلى فنه، ولكن هذه الرغبة محدودة ويمكن لكمية متواضعة من المال أن تشبعها كلياً. الاعتقاد بأن كل القيم يمكن أن تُقاس من وجهة نظر المال، وأن المال هو المقياس الأول والأخير للنجاح في الحياة، تُطبق جماهير مؤلفة من الناس هذا الاعتقاد بالفعل، ويدفع الناس ليعتبروا رغباتهم التي تخالف الرغبة في تجميع المال غير مهمة... لقد أودت عبادة المال بكل ما هو عظيم في الإنسان إلى رقاد شبيه بالموت، خاصة إذا وصل إلى حد التغيير. ويأكل الحرص والقلق الناتجان عن الخوف من فقدان المال قدرة الناس على السعادة، ويصبح التخوف من حلول المصائب نفسه مصيبة أكبر... إن أسعد الناس كما نستطيع كلنا أن نشهد على ذلك من اختبارنا الشخصي، هم أولئك الذين لا يبالون بالمال، إذ أن عندهم مقصداً إيجابياً يطرد المال خارجاً".[71] وأخيراً ما قاله (ديوجين) يلخص كل الموضوع: "لا ملك لإنسان إلا ما تمتلكه نفسه، لا ما تمتلكه يده، فما يملكه الإنسان في الحقيقة، هو ما كان في نفسه لا في يده وما عدا ذلك فهو في يد الدهر".

3- اللذة.

كل إنسان يسعى للحصول على اللذة، والهروب من الألم، ولكن معظم الفلاسفة أجمعوا بأن اللذة لا تكون لذة إذا كانت مترافقة مع الألم والخوف. ولهذا هناك فرق كبير بين اللذة والسعادة، فالسعادة حالة لا يمكن قياسها، بينما اللذة خاضعة لإرادة الحواس، وهي عابرة وآنية، عكس السعادة التي تعبر عن حالة مستمرة من الرضا والانشراح.

[71]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 98.

من الملاحظ أن كل فرد يسعى من أجل لذاته الخاصة، ولكن المفارقة في أن بعض الأفراد بسبب أنانيتهم لا يفكرون بمبادئ السلوك الإنساني أو الخير العام، بينما البعض الآخر قد يصرف النظر عن لذته الخاصة إذا كانت قد تسبب الأذى للآخرين؛ وهذا التأجيل أو التخلي عن لذة آنية عابرة سيمنح صاحبها لذة أكبر بسبب موقفه الأخلاقي. لقد اعتقد أبيقور أن شكلاً من أشكال اللذة يكمن في غياب الألم والقلق.

هذه أبيات رائعة في"الجيتا" تعبر عن أشياء الحس:
"إذا فكر المرء في أشياء الحس،
فهناك تنبثق الاستمالة.
ومن الاستمالة تنشأ الرغبة،
وتتأجج الرغبة فتصبح شهوة
والشهوة تولد الطيش.
ثم أن الذاكرة – وقد خُدعت –
تتخلى عن الهدف النبيل، وتخرب العقل،
حتى يهلك الهدف، والعقل، والإنسان جميعاً".[72]

اللذة السامية هي التي تمنح الإنسان الإحساس بالمتعة، وهذه تأتي من خلال عمل محبب كالشعر أو الموسيقى أو الابتكار، وكل عمل محبب يجلب السعادة، فخير للإنسان أن يقوم بالعمل الذي يحبه ويتقنه، بدل الانجراف خلف أهواء عابرة ومؤذية.
أرسطو يقول: يجب أن نحث كل شخص لديه القدرة على أن يعيش وفقاً لاختياره، أن ينشىء موضوعاً لنفسه يهدف إليه، قد يكون هو الشرف أو الشهرة أو الثقافة،

[72]- قصة تجاربي مع الحقيقة ص 322.

سوف يقوم بكل أفعاله استناداً إليه، لأنه حينما لا تكون حياة المرء منظمة وفقاً لهدف ما فإن ذلك هو الحماقة.

أبيقور يقول بضرورة التمييز بين أنواع اللذات والآلام. ووضع أربع قواعد لتجنب اللذات التي تسبب الآلام وهي:

1- الأخذ باللذة التي لا يعقبها ألم.

2- تجنب الألم الذي لا يؤدي إلى أي لذة.

3- تجنب المتعة التي تحرم من متعة أكبر، أو قد تسبب من ألم أكبر مما تجلب من لذة.

4- قبول الألم الذي يخلص من ألم أشد، أو يعقبه لذة أكبر.

ثم ينتهي أبيقور إلى نوع من حساب اللذات ومن قواعد الأخلاق المعتادة مثل: العفة، والاعتدال، والإحسان، والصداقة، واحترام القوانين. ويجعل الغاية من الأخلاق الوصول إلى طمأنينة النفس، وهو أمر لا يتحقق إلا بالابتعاد عن الشؤون العامة، والقناعة بالقليل، حتى يُطيل الحكيم في عمره، ويحافظ على صحته، ويظل مستقلاً عن الناس. ويقال أن أبيقور كان يعيش هو وتلاميذه في حديقتهم أبسط عيشة، مقتصرين على الضروري. وكان يميز بين الرغبات الطبيعية الضرورية، وبين الرغبات غير الضرورية الصادرة عن الغرور والتفاخر والشهوة البهيمية لأنها تفسد هدوء النفس وتستعبدها، ويمكن للإنسان أن يكتفي بأقل قدر من الطعام والشراب والملبس وغيرها. وكلما كانت الرغبات أكبر كلما كان شقاء الإنسان أكثر، فهذه الرغبات تحتاج إلى الجهد والمال والوقت للحصول عليها، وهذا الانهماك في سبيل الحصول على الكماليات يكلفنا الكثير من الجهد والتعب مما يقلل السعادة ويسهم في زيادة الكلفة وزيادة السعي خلف المنفعة الذاتية والأنانية، وهذه الأنانية لا تفيد إلا صاحبها. [73]

[73]- الأخلاق النظرية. ص 244.

ويرى **سبينوزا** أن السعادة تكون في قدرة الإنسان على المحافظة على وجوده. ويقرر أن العقل لا يطالب بشيء متناف مع الطبيعة، ولا مضاد لها. وتبعاً لذلك يرفض اسبينوزا الزهد ولكنه يدعو إلى الاعتدال في تناول اللذات، فيقول: "من شأن الإنسان الحكيم أن يستمتع وأن يسترد قواه بفضل الطعام الجيد والشراب اللذيذ ولكن باعتدال، وكذلك استعمال الطيب، والتحلي بسحر النبات اليانع، وباستعمال الزينة، والاستماع إلى الموسيقى، ومشاهدة المسرحيات... ولكنها كلها أمور يمكن المرء أن يتناول منها دون إلحاق الضرر بالغير".28

أفلاطون دافع بشدة عن أهمية التعقل وعدم الانجراف خلف اللذات دون حساب. فإذا لم يتحكم المرء بغرائزه وانفعالاته حتماً سيرتكب الأخطاء، ولا تتجسد السعادة إلا في البعد عن الشهوات، والحكيم هو الذي يضبط شهواته. فيقول: "وكانت حياة الشهوة موتاً متكرراً، مثلها مثل الدن المثقوب تصب فيه فلا يمتلئ، أو مثل الأجرب لا يفتأ يحس حاجته لحك جلده فيحك بقوة فتزيد حاجته ويقضي حياته في هذا العذاب. أو مثل مدينة رعاعها هائجة مائجة، أو مثل مسخ متعدد الرؤوس، وسبع جائع تمزقه الشهوات وتتغذى بلحمه ودمه وهو لا يملك فكاكاً بعد أن ارتمى بين أيديها عبداً وضحية. هذا المخلوق لا يمكن أن يحبه الناس، ولا ترضى عنه الآلهة، بل لا يمكن معاشرته فلا يذوق لذة الصداقة فهو شقي للغاية... فلا تقل أن السعادة تقوم في الشهوة القوية وفي اللذة، وإنما قل أن الإنسان أسعد حالاً في النظام منه في الإسراف. ولو اتبعنا حساب أصحاب اللذة بشرط أن تضبط الحساب، لوجدنا أن الحياة الفاضلة هي ألذ حياة. تمتاز بخفة الانفعال وضعف اللذة والألم، ولكن اللذة فيها أغلب وأدوم، في حين أن الألم أغلب وأدوم في حياة الرذيلة".[74] أفلاطون يقول الناس يخطئون بسبب نقص المعرفة وبسبب الجهل في قياس نتائج الأفعال. فإذا سيطر المؤلم على السار ينبغي أن نحجم عن القيام

[74]- تاريخ الفلسفة اليونانية ص 94.

بالفعل الذي ستكون نتائجه مؤلمة. ويرى أفلاطون أن الحكيم والجاهل كليهما يسعى إلى الخير ويستشرف إلى السعادة، لكن الحكيم هو من يعرف حقيقة الخير بينما الجاهل لا يعرف إلا الظواهر، فيتصور أن الخير هو اللذة، مع أن اللذة هي المظهر الحسي فحسب. ولذا يقبل على اللذة وينحرف عن سبيل الخير. والحكيم يعرف حقيقة الخير، فإن وجده في اللذة أخذ منها، وإن وجده في غيرها أخذ به، فمتى علم بالخير أحبه وسلك وفقاً له.

السعادة هي انسجام بين الرغبات وهذه الرغبات صنفها أفلاطون في ثلاث فئات: فئة تتعلق بالفعل، وفئة تتعلق بالروح، والثالثة تتعلق بالشهوة. وإذا سيطر العقل على هذه الرغبات وقام بتنظيمها بطريقة تتوافق مع حاجات الفرد فلن يكون هناك ضغط أو إلحاح. حتى مع تقدم العمر لن تكون الشهوات مرهقة إذا كانوا معتدلين وقانعين، المهم هو الانسجام بين الأهداف.

الكندي يُعرف الحزن بأنه:" ألم نفساني يعرض لفقد المحبوبات أو فوت المطلوبات". والحزن ينشأ عن اعتماد الإنسان في سعادته على الملذات الحسية التي لا ثبات لها. بينما السعادة تنشأ عن الممتلكات العقلية الباقية. والإنسان هو إنسان بنفسه لا بجسده. وعلى الإنسان أن يستعمل عقله في تدبير نفسه وسياستها، وأن لا يُكثر من المتاع الزائلة. "فاجعل أيها الأخ المحمود هذه الوصايا مثالاً ثابتاً في نفسك، فتنجو بها من آفات الحزن، وتبلغ بها أفضل وطن من دار القرار ومحل الأبرار، كمل الله سعادتك في داريك، وجعلك من المفتدين بجني ثمر العقل، وباعدك عن ذل الجهل... فقل للباكين ممن طبعه أن يبكي من الأشياء المحزنة؛ أن يبكي ويكثر البكاء على من يُهمل نفسه ويُنهك من ارتكاب الشهوات الحقيرة الخسيسة الدنيئة المموهة التي تكسبه الشره وتميل بطبعه إلى طبع البهائم." الكندي كان يُقر بأن جوهر الطبيعة الإنسانية لا يخلو من أن تداعب قلبه عواطف الحب والهوى، ولكن عليه أن لا ينقاد بشكل مطلق لهذه العواطف.

"إن الله يدعونا إلى الحياة السعيدة من خلال ما رسمه لنا من خطة الحياة، فإذا رأى عبده عاكفاً على طاعته سيمنحه تلك المنحة النادرة التي لا يصل إليها أحد من عشاق الهوى، ألا وهو شرح الصدر. ومن آثار شرح الصدر هو الإحساس بحالة التمدد في خط الوجود، بحيث يرى كل شيء بمنظار الوقوع في خط الأبدية. فإن من الغباء بمكان أن يكدس الإنسان موجبات الشقاء الأبدي في الحياة الخالدة مقابل سويعات من الأنس المحرم وهو يعلم بفناء اللذة وبقاء التبعة".[75]

وسقراط يقول: اعلموا أنكم إذا رضيتم أن تكونوا عبيداً للشهوات فلا سبيل لكم إلى الفضيلة التي تصعد بكم إلى معارج السعادة، ولا تأثير لصوت العقل والحكمة إلا في النفوس الطاهرة التي تسعى جهدها للتخلص من قيد الشهوات. وليست قوة الشهوات هي التي تتغلب على النفس، ولكن الجهل هو الذي يُضعف النفوس ويذلها ويقيدها في تلك القيود، فعليكم التغلب على سلطان الشهوات الذي يسلطه عليكم الوهم والجهل لتخرجوا من الظلمات إلى النور وتذوقوا حلاوة الفضيلة التي بها تمام السعادة."[76]

ركز أنتستين في فلسفته على علم الأخلاق، وجعل سعادة الحياة في احتقار الجاه والمال ونبذ الشهوات والعمل بالفضيلة. ولما كانت الغاية عنده من هذا الوجود هي بلوغ سعادة النفس فقد قرر أن الفضيلة وحدها هي الطريق إلى تلك الغاية، وأن ما كان من أفعالنا خارجاً عنها فهو إما ضار وإما غير نافع."[77]

---

[75]- كيف تعيش الحياة وتحبها ص 107.
*- المبدأ الأساسي للطاوية ويعني الوئام مع القوانين الأساسية للكون.
[76]- قضية الفلسفة ص 27 .
[77]- نفس المرجع ص 28 .

كرشنا أحد أبطال الهندوس المقدسين يقول: "إن الذي تغلب على أهوائه النفسية وملك حواسه كلها، فلا يخاف شيئاً ولا يطمع في شيء، ولا يحب أحداً ولا يكره أحداً، فهو نال العقل وجمعه. إن الحواس تتبع ميولها وعلى المرء أن يجذب إلى قبضته حواسه من مشتهياتها كما تجذب السلحفاة أطرافها إلى بعضها، فهو المطمئن حقاً، وإن كان يقوم بأعمال الدنيا كغيره من الناس، إنما الفعل الحقيقي هو التحرر من سلطة النفس."

"الإنسان الذي يجعل اللهو غاية حياته سيفقد تدريجياً اهتمامه في الأشياء التي اعتاد على الاستمتاع بها، لأنه لا يُقيم وزناً لهذه الأشياء من أجل ذاتها وإنما من أجل الأحاسيس التي تثيرها فيه. وعندما تفقد هذه الأشياء متعتها عنده، يدفعه الضجر للتفتيش عن محرك جديد، ولكن هذا بدوره أيضاً سيخيب أمله، لأن المتعة تتألف من سلسلة من اللحظات دون أي استمرار أساسي فيها."[78]

"ومن هنا يبتلى بنكسة أخرى عندما يخسر رغبة من رغباته، فطبيعة المتاع الدنيوي سرعان ما توجب الملل، لأنه لا تجدد فيه، وهذا هو الذي يعترف به المتوغلون في عالم الاستمتاع الجسدي عندما يستنفذون كل ألوان المتع ويصلون إلى طريق مسدود في الحياة، ويعيشون حالة من الارتداد على أنفسهم، والتبرم من واقعهم إلى درجة أن يُقدم أحدهم على إنهاء حياته عندما لا يجد مبرراً للاستمرار في ذلك."[79]

حياة الغريزة وحدها لا تولد غير الحسد والغيرة، وتقتل روح الخلق والإبداع، والناس الذين يتخلصون من سطوة الغرائز نجدهم مترفعين غير مثقلين بالعداوة والغم والنكد.

---

[78]- أسس لإعادة البناء الاجتماعي ص 193.

[79]- كيف تعيش الحياة وتحبها ص 106.

4- السياسة

منذ القرون الأولى استحوذت السياسة على اهتمام المفكرين. عند القدماء كانت الأخلاق تنظم سلوك الفرد، والسياسة تنظم حكم المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد، ولهذا اعتبرت الأخلاق جزءاً من السياسة، وكان أرسطو يدرس الأخلاق كمقدمة لدراسة السياسة. وأساس كلمة حاكم من حكيم أي الذي ينتهج الطريق السوي. أرسطو يفترض أن النشاط السياسي يساهم في تحقيق السعادة إذا كان الحكام فلاسفة.

كونفوشيوس يقول: "إذا فسد الحكام فسد الشعب، فأخلاق الشعب من أخلاق الحكام".

وآمن كونفوشيوس بأن الحكومة يجب أن يكون هدفها سعادة الناس وتأمين الرفاهية لهم، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تولى شؤون الحكم أعظم الرجال. وقال أن الفطنة لا علاقة لها بالثروة أو المولد أو المكانة، وإنما بالخُلق والمعرفة. ويجب أن يتم إعداد الرجال الأكثر موهبة بغض النظر عن أصلهم لإدارة شؤون البلاد.

ومنهم من اعتبر الحكومات مصدر الشر، كالفيلسوف الصيني "جونغ دزه" قي القرن السادس قبل الميلاد، وهو أميل إلى النزعة الصوفية. وفي ذلك يقول: "الأفضل إذا ما أُريد للفيلسوف أن يحكم، أن يترك العالم وشأنه، وألا يفعل شيئاً... لقد سمعت عن ترك العالم، ولم أسمع عن حكم العالم. فالإنسانية بخير قبل وجود الحكومات، أما بعد ذلك فكانت الحكومات مصدر الشر، ولذلك على الرجل العاقل أن يولي الإدبار حيث يشاهد أولى بوادر الحكومة. فينشد السلام والسكون في الغابات."[80]

[80]- تيارات الفلسفة الشرقية ص 77.

وفي القرن الثالث قبل الميلاد تكرر هذا الكره للحكومات على لسان الفيلسوف الصيني "شون تشينغ" وهو فيلسوف عقلاني وكانت فلسفته دراسة نقدية، تصدى من خلالها للأوهام والخرافات، واعتبر أن الظواهر الطبيعية كالخسوف والكسوف أو الجفاف، ليست مصدراً للشر أو دليل الشؤم، وقال إن مصدر الشؤم والشر أفعال الحكومات، فلو كان الأمير متنوراً والحكومة صالحة فإن هذه الحوادث الطبيعية لا تسبب الأذى، بل مصدر الأذى والجوع والموت هو بسبب الحكام الأشرار.

الأمن والاستقرار النفسي حاجة إنسانية أساسية، فالقلق والرعب من الأمور الفظيعة التي تسبب التعاسة، والحروب من أكبر الكوارث التي تهدد البشرية، ولا شك أن أساس الحروب هو الصراع بين السياسيين.

ولا شيء يساهم في خفض مستوى التوتر والحزن أكثر من وجود الأمان والاستقرار، وهذا لا يمكن أن يتحقق إذا لم تتم السيطرة على أنظمة التسلح، والحد من تدمير البيئة بمن فيها من البشر ومن الحجر ومن الموارد.

ولنسأل نفس السؤال الذي طرحه ألبير كامو في العادلون: "أينبغي اليوم أن تسيل أنهار من الدم لكي نتمكن غداً من إقامة العدالة. وهل يتعين علينا أن نصبح قتلة ليكون عندنا نظام اجتماعي أفضل".

والمستعمر يعمل على تكريس الجهل لتعزيز نفوذه، نحن لا نستطيع أن نهرب من الحقيقة بأن أكثر مظاهر القلق والخوف وعدم الاستقرار عند معظم الناس يعود إلى هذا الواقع العنيف. وإلى سياسات استعمارية تجرد المواطنين من حقوقهم المشروعة؛ الكل بحاجة إلى هوية وانتماء، وإلى استقرار وأمان.

كان سائداً في عهد التاويين الترفع عن تولي المناصب الوزارية، فكان الشعب والحكام يفضلون حياة الطبيعة والصيد والرضا. لقد كانت أهداف هذه الحكمة في

السياسة إيثار السلام والترفع، لأن حب الثروة وعلو المنزلة والعجرفة تدفع الإنسان إلى التهلكة.

وفي كتاب قديم لا يُعرف مؤلفه ولا تاريخ تأليفه بالضبط وهو كتاب "رامايانا " لأن الكتب المقدسة الهندية ألفت في فترات طويلة، وهذا الكتاب يعنى بالأفكار السياسية و الدستورية في الهند. وملخص هذه الأفكار أن تكون غاية الحاكم هي خدمة الشعب وخير البلاد، وكان اختيار الحاكم يُترك لإرادة الشعب، شرط أن يتمتع بالأخلاق والسيرة الحسنة. وأول هذه الأخلاق هي العدل في الحكم وعدم التفريق بين الرعية، والسهر على راحة الشعب، وأن لا تؤثر مصالحه الخاصة على مصالح العامة. وعلى الحاكم أن يكون صادقاً، وعلى الرعية أن تقول الحق ولا تسكت على الظلم، فالساكتين عن الحق هم أكثر الكذابين شراً. والذين يسكتون عن الحق نظراً لمصالحهم الذاتية، أو خوفاً من نقمة الأقوياء هم المجرمون الذين يخلدون في نار الجحيم".[81]

ولا يمكن تجاهل القول البارز لروسو صاحب العقد الاجتماعي وهو: "إن الحقيقة الكبرى التي يمكن أن تغير الجنس البشري تعود بشكل أساسي إلى السياسة؛ وأي شعب ليس إلا ما تريده طبيعة حكومته أن يكون". ومن الواضح أن كل ما يحصل من حروب ومن فتن يعود لأسباب سياسية، وليس من المستغرب إذاً كثرة عدد اللصوص والمجرمين بسبب هذه الفوضى.

السياسة يجب أن تكون لتنشئة وتعليم المواطنين، فالتعليم يخلق آفاقاً وطموحات، والأخلاق تتشكل من خلال المعارف. أرسطو يعتبر السياسة علم السعادة الاجتماعية، ويقول أن السياسة هي الغاية العليا لأنها تسعى لخير الإنسان. ولكن ما المقصود من هذه الغوغاء التي تحصل، فالمجادلات لم تزد الناس إلا فرقة، والانقياد الأعمى باتجاه العنف، فتوحيد الرأي يقوم على البراهين اليقينية لا على المجادلات الكلامية. محمد عبده لا يثق بثورة الجماهير حيث رأى أن "الغوغاء

[81]- أديان الهند الكبرى ص 93- 95.

عون الغاشم ويد الظالم" وخاصة إذا كانت الجماهير غير مثقفة أو واعية تماماً لما يحصل. والكواكبي يعتبر السياسة أساس الأخلاق: "الأخلاق أثمار بذورها الوراثة وتربتها التربية وسقياها العلم والقائمون عليها هم رجال الحكومة. بناء عليه تفعل السياسة في أخلاق البشر ما تفعله العناية في إنماء الشجر". والملفت في فكر الكواكبي هو تحليله للفتن التي تجر الفوضى، فالفوضى لا تجدي ولا تقوم بإصلاح الخلل، المهم الوعي ووجود مصلحين ومتنورين ينشرون الوعي بين الناس، فسعادة المواطنين لا تتحقق إذا عم الخراب وساد منطق القتل بين الناس.

5- الحب.

أول ما يجب معرفته ما هو الحب؟
الحب هو كل ما يتعارض مع الأنانية، يرى فيه علماء الأخلاق مصدر الفضيلة العليا، ويشترط فيه دائما التخلي عن المصلحة الفردية. الحب أشمل المعاني يتضمن حب المعرفة وحب الرحمة وحب الإحسان وحب الخير... أما الحب الشهواني الذي يهدف للأخذ أو الامتلاك مصيره الزوال وهذا نوع من الهوى وليس الحب.

الفيلسوف أنبادوقليس المتأثر بالفيثاغورية يعتبر أن عناصر الوجود متجانسة، تجمعها المحبة فتصبح متماسكة، وتفصلها الكراهية فتصبح متباينة. من هنا يكون التجاذب والتنافر، أو الخير والشر. المحبة تؤسس للخير وتبث السعادة، والكراهية تولد الشر والاضطراب وهذا القبح يدفع باتجاه التعاسة والبؤس.

هيغل قام بدراسة محض سيكولوجية للحياة الباطنية فلم يقتنع بموضة اللجوء إلى القلب أو ما يسمى الرومنطيقية خلال عصره، قال: "إن الحب يعني بشكل عام

أن أعي وحدتي مع شخص آخر بحيث لا أكون لذاتي منعزلاً، بل أنني لا اكتسب وعيي لذاتي إلا إذا تخليت عن كينونتي لذاتها، وعرفت ذاتي كوحدة بيني وبين الآخر، وبين الآخر وبيني، إن اللحظة الأولى في الحب هي أن أتخلى عن كوني شخصاً يكتفي بذاته، وأن أشعر بأنني ناقص ومشوب بالخلل في حال كنت هذا الشخص، أما اللحظة الثانية فهي أن أحقق كينونتي في شخص آخر أكسب فيه القيمة التي كسبها هو فيَ. فالحب إذن هو أضخم تناقض بين التناقضات التي تعجز الفاهمة عن حلها... إنه في الوقت نفسه إنتاج هذا التناقض وحله، والحب من حيث هو حل، هو الاتحاد الأخلاقي بين الكائنات".

حاجة الإنسان إلى الشعور بالحب حاجة أساسية تستمر مدى الحياة. والحب الحقيقي يوحد بين الناس. وكي لا يفقد الحب معناه النبيل لا بد من التضحية والترفع عن الأنانية.

ولكن كيف يمكن أن يتحول الحب إلى كره مدمر يسبب التعاسة؟ وبالعكس كيف يمكن أن ينقلب النفور إلى حب حقيقي؟

شوبنهور يرى: "إن الفعل الذي لا يهدف إلا إلى سعادة الفاعل مذموم، لأنه أناني والأنانية تنافي القيم الأخلاقية، والفعل الأخلاقي حقاً هو الذي يهدف إلى إبعاد الشقاء عن الغير، وإلى جلب السعادة له... والشفقة يمتزج فيها الذات مع الغير، ومن الشفقة تُستمد العدالة والإحسان والمحبة... والشفقة لا تمنعني فقط من الإضرار بالآخرين بل تدعوني أيضاً إلى نجدتهم وتلك هي المحبة. في هذا الحب يرتفع الإنسان فوق مبدأ الذاتية، فيشعر بأن الوجود بأسره كل واحد: فما أنت غيري، وما أنا إلا أنت، لأن الذاتية زائلة عابرة. فإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة، وهي أن الناس والكائنات جميعاً شيء واحد، عرف أن إرادة الحياة لديه هي تلك بعينها التي لدى كل مخلوق في الوجود، فالحب إذن شعور بوحدة الوجود، وفي هذا الشعور نتحرر من كل القلق، لأن مصدر القلق والخبث في

الإنسان شعوره بأن ذاته المفردة هي التي تتألم وتتعذب، ويحس الإنسان في أعماقه بأن ظواهر الوجود تبتسم كلها له فيحيا في نعيم مقيم معها. سعادة الواحد هي سعادة الآخر، فيكون الجميع مشاركة وجدانية عامة. ومن هذا الشعور بالوحدة ينبع الخير، وبه تقوم الفضيلة. أما الشر فهو الشعور بالذاتية. حيث يحس الإنسان بأن بينه وبين الآخرين هوة لا يمكن عبورها".[82]

ولا علاقة للحب بالغريزة أو الشهوة، وحين يتعلق الأمر بالغريزة تكون الصورة مختلفة تماما حيث تنطبع بطابع الأنانية والهوى. ويمكن أن يكون الهوى لرغبات سيئة، أو لأمور إيجابية جيدة، ولكن هذه الأمور تنحصر ضمن إطار الحس. بينما الحب الحقيقي هو ائتلاف العقل والروح.

"لا نستطيع إمساك الحب بأيدينا لكننا نستطيع فقط أن نشعر به في أعماقنا، إنه حالة وجودية، لأننا نرى دلائل الحب فيما يظهر على الناس. الحب شعور وأنت الوحيد القادر على إصدار تلك الرسالة الشعورية التي تحمل الود والمحبة. قدرتك على توليد الحب لا محدودة وعندما تحب تعيش في حالة تناغم تام مع الكون. أحب كل شيء من حولك، أو ركز على ما تحب، أشعر بالحب وستختبر نفس ذلك الحب وتلك البهجة معكوسين لك وبشكل مضاعف. إذ يتوجب – حسب قانون الجذب* – أن تتلقى مزيداً من الأشياء التي تحب، وعندما تنشر الحب حولك سيبدو الأمر وكأن الكون يفعل كل شيء لأجلك ويحرك كل الأحداث المبهجة نحوك، وكل إنسان جيد ومحب إليك".[83]

"والحب لا يشترط فيه التبادل، فمن يحب حقاً لا يعنيه أن يكون موضوع حبه يبادله حباً بحب، كأن يريد الحب على هيئة تغير وحركة باستمرار. وهذا ما عبر عنه (جيتة) في كلمة قالها في رواية "إذا كنت أحبك فهل هذا يعنيك؟" فمعنى هذا

---

[82]- الأخلاق النظرية ص 278.

[83]- السر ص 134.

*- هي طاقة تجذب إلينا الأفكار المهيمنة على تفكيرنا، إيجابية كانت أم سلبية. مثلاً إذا تصورت أنك تعيش حياة سعيدة فهذا التفكير سيجذب نحوك السعادة. بينما إذا تصورت أنك كئيب ومحبط فهذا التفكير سيجلب لك مزيداً من الإحباط والتعاسة.

القول أنه ليس يعني المحب أن يكون حبيبه يبادله حبه، بل الأحرى به أن لا يبادله إذا أراد حباً عميقاً، لأن تبادل الحب يقضي على الحب نفسه كحركة متوثبة تسعى لإثراء الذات باستمرار؛ وهذا هو السر في تبدد الحب بمجرد حظوة المحب برضا الحبيب، إذ بالرضا تقف الحركة، وهي مصدر الإثراء، أي يقف الحب عن تحقيق الغاية منه، ولذا نرى كبار المحبين هم هؤلاء الذين لم يصلوا إلى تحصيل موضوع الحب، سواء على هيئة زواج، أو على أية صورة أخرى؛ والروائيون يعنون دائماً بهذه الناحية، وإلا وقفت حوادث القصة بالضرورة، كما نرى في القصص التي تنتهي إلى زواج أو ما يشبه. وهذا يفسر لنا إخفاق الزواج القائم على الحب، إذ يشعر كلاهما بخيبة أمل لا يبلغ مداها التعبير، وما ذلك في نظرنا إلا لوقوف حركة الحب بمجرد تحصيل موضوعه في الزواج".[84] الزواج إذا بُنيَ على أوهام الهوى والهيام سوف ينهار بمجرد أول اختلاف في السلوك والمزاج، فيتحول الحب إلى كراهية.

شيلر ينظر إلى هذا الموضوع من الناحية النفسية فيقول: الكراهية هي الناحية السلبية والحب هو الإيجابي، قلبنا قد فطر منذ أصله على الحب لا على الكراهية؛ وما الكراهية إلا رد فعل ضد حب زائف أياً كان.

وهناك فرق بين الحب والتملك. أفلاطون ينظر إلى الحب باعتباره قوة منتجة إبداعاً لشيء جديد، وليس تملكاً للمحبوب.

[84]- الزمان والوجود ص 166.

6- الجمال.

الجمال الخَلقي صورة فارغة باهتة، قد تلفتنا هيئة بعض الأشخاص للوهلة الأولى، ولكنها سرعان ما تفقد حيويتها، وتبهت ألوانها إذا لم تشرق فيها جمالية الروح وشفافية النفس.

ولا شك أن للجمال تأثير على الناس، فالأشخاص الجذابين يتمتعون بمزايا مرغوبة تقربهم من الآخرين، وهم أكثر قدرة على جذب الناس للوهلة الأولى. ولا شك أن الذي يمتلك المقاييس التي يعتبرها البعض جميلة لديه القدرة على التواصل مع الناس بسهولة أكبر من الذين لا يمتلكون هذه المقاييس. ولكن من امتلك الخُلق والفطنة يستطيع أن يضفي على مظهره طابع الجاذبية، وبهذه الجاذبية تنقلب مقاييس الجمال فيطغى الجمال الداخلي أو ما يسمى جمال الروح على المقاييس المتعارف عليها على أنها جمال؛ فمقاييس الجمال تتغير حسب العرف والموضة، بل قد تختلف المقاييس باختلاف الأفراد في المكان الواحد، فالجمال الخَلقي خاضع للمشاعر والانفعالات، أكثر مما يخضع للعقل. ولكن حين يمتلك المرء الخُلق والفطنة يستطيع أن يؤثر في الناس حتى وإن كان من أصحاب العاهات أو الإعاقات. "وهذا ما جعل بعض الباحثين يربطون بين الجمال والخير، إلى حد جعل اليونان يستخدمون لفظاً واحداً للتعبير عن الجمال والنبل الخُلقي. كما رأى البعض أن الجمال يكمن في الانسجام والتناسق والخلو من الميول غير الطبيعية".[85]

سعادة الإنسان لا تتحقق فقط بالجمال الخارجي. "بعض الرواقيين في القرن الثاني بعد الميلاد – خصوصاً – بانثيوس قد أكدوا أن كل شخص يكون له دور في الحياة ينبغي أن يتوافق معه، بما في ذلك المظاهر الخارجية باعتبارها ليست بالأمر الجيد أو السيئ، وليست لها أي قيمة. والجميل هو وحده الكامل في عرف

[85]- أسس الفلسفة ص 378.

الأخلاق. "وتردد هذا الصدى عند بعض المحدثين الفيلسوف هربات – مؤسس علم الجمال – وحد بين الخيرية والجمال، وعالج علم الأخلاق باعتباره فرعا من علم الجمال. ويقول رسكن الذوق ليس جزءاً من الأخلاق وشاهداً عليها فحسب، بل إنه وحده الكفيل بالتعبير عنها."[86]

7- المجتمع

ديكارت كان شعاره: "عاش سعيداً من أحسن في الاختفاء". ولكن إذا كانت السعادة في الفضيلة، والفضيلة تعني العطاء ومساعدة الآخرين فكيف يمكن للعزلة أن تكون هي السعادة؟

وجود الإنسان يفقد أهميته خارج المجتمع، ولا يمكنه أن يبقى في عزلة، وكل وجود ليس فيه حركة أو عاطفة أو مشاعر أشبه بالعدم. على الإنسان أن يتعاون مع أقرانه على تحقيق الخير العام، فتحقيق الخير العام هو تحقيق سعادة الجميع.

ولكن التواجد بين الناس يفرض علينا الكثير من الواجبات والقيود، فالعلاقات الاجتماعية تمنحنا فوائد كثيرة، وتحد من حريتنا في مسائل كثيرة أيضاً، إذا كانت هذه الواجبات وهذه القيود تهدف للخير لن تكون سيئة، ولكن هناك بعض العلاقات تسبب لنا المتاعب فلا نستطيع التكيف معها. مثلاً : هل يمكن أن تستمر صداقة الفضوليين والنمامين والخونة؟!.

قد أكون أنا على صواب، ولكن إذا كان كل من حولي لا يعترفون بذلك؛ كيف ستكون النتيجة؟ وهل يمكن مواجهة الجميع؟ وإذا قررنا المواجهة سنصبح خارجين عن المألوف من هذا المنطلق فقط تصبح الوحدة والابتعاد عن بعض الناس ضرورة.

---

[86]- أسس الفلسفة ص 382.

يقال حسب معاملتنا للناس نكسب محبتهم، ويُقال لكي تكسب محبة الناس عليك أن تكون على مثالهم، ولكي يشعر الإنسان بالسعادة عليه أن لا يُعادي أحداً. فهل يمكن فعل ذلك دائماً؟ بعض العلاقات تسبب لنا الحرج، فهل يمكن أن نكون أصدقاء للعنيف أو المدمن أو المقامر أو المجرم...؟ فالمحتال لن يرضى برفقة من يكشف احتياله ولا المجرم سيتركنا بسلام. وهل يمكن أن نتوافق مع المقامر أو المدمن أو الجاهل...؟ وإذا كان علينا أن نتلون ونتشكل وفق محيطنا وتجاهل ذاتنا واتباع أهواء الآخرين فهذا موضوع لا يحتمل، ويدفعنا أحياناً للتخلي عن الكرامة أو النزاهة أو العفة وهذا غير ممكن.

العلاقات الاجتماعية هي مصادر للسعادة والصداقة ارتباط محبب، والصديق قد يكون هو الأخ أو الجار أو الزميل... وكلهم أشخاص لا يمكن الاستغناء عنهم.